# المحاضرة الثانية: انتشار المذهبين الصفري والإباضي ببلاد المغرب ( الدعوة، الثورة، الدولة )

**أولا: نشأة الخوارج وبدايات انتقالهم إلى المغرب**

تعود جذور فرق الخوارج (ومنها الصفرية والاباضية) إلى جماعة المحكّمة الأولى في النهروان 37هـ/685م بعد ما وقع من انشقاق وتصدّع في معركة صفين. أما عن تاريخ ظهورها كفرقة مستقلة بآرائها ومبادئها وأفكارها فلم يكن ذلك بالأمر البيّن لأنه كان تدريجيا وعبر مراحل استلزمت عقدا من الزمن، لكنه انتهى بإعلان عبد الله بن إباض صراحة رفضه الخروج مع ابن الأزرق ومن معه من الخوارج وذلك سنة 65هـ/ 684م، فكانت هذه الحادثة إعلانا رسميا لظهور الإباضية على مسرح التاريخ الإسلامي بالمشرق متميزة عن الخوارج، بل إن هؤلاء أطلقوا على ابن إباض وأتباعه اسم القَعَدَة ، وأخرجوهم من دائرة الخوارج وتبرأوا منهم، وأكَّد ذلك الأشعري نفسه في مقالاته عندما بيَّن الفرْق بين الإباضية وبين غيرها من فرق الخوارج الأخرى التي استباحت الدماء وهتكت الأعراض فقال:" فبرئت الخوارج منهم على ذلك" ، لينتشر بعد ذلك فكرهم في البلاد الإسلامية في وقت لاحق

وعليه ظهر الفكر الخارجي ببلاد المشرق على إثر الخلاف الأول الذي نشب بين الصحابة في عهد علي رضي الله عنه، ثم تبلورت أفكاره بالبصرة بعد أن تباينت الهوة بين أتباعه وبين فرق الخوارج الأخرى، بحيث سلكوا نهجا ابتعدوا فيه عن غلوّ وتطرف الأزارقة ورفضوا قتل المسلمين واستباحة دمائهم، فبدأت أفكارهم تميل إلى اللين، ومبادئهم تقوم على الحوار والتواصل، ومن تلك المبادئ انطلق الإباضية في بناء فكرهم وسياستهم ومجتمعاتهم على أصول ومبادئ قرآنية واتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم-حسب ما يعتقدونه- وأهم تلك المبادئ بالترتيب المنطقي هي: كيفية التعامل الفردي والجماعي مع الطرف الآخر أيًّا كانت مدرسته أو ملته، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم الولاية والبراءة ثم يأتي الحديث عن الإمامة ومسالك الدين التي تعد تجسيدا لمعالم ومبادئ الفكر الإباضي ولا وجود للحكم الإباضي بدونها.

وقد كان فشل الخوارج في المشرق وعدم تحقيق أهدافهم سببا في توجيه أنظارهم نحو مناطق أخرى ولما كانت بلاد المغرب وجهة العديد من المذاهب الإسلامية المشرقية، بغرض التبشير بأفكارها ونشر مبادئها، وأملا في إيجاد أرضية خصبة لإقامة السلطة بها، اتجه إليها دعاة الخوارج ، ويعلق المؤرخ الهولندي "رينهرت دوزي" كما نقل عنه "ألفرد بل" :" لم يجد علماء الخوارج المتحمسون المخلصون ما وجدوه هنا من استعداد لقبول دعوتهم، لقد وجد الكلفينيون المسلمون أخيرا أسكتلندتهم"،

وجدت الدعوة الخارجية طريقها إلى بلاد المغرب منذ وقت مبكّر مستغلة الصراع بين الولاَة الأمويين والبربر، ذلك أنَّ الصراع كان نتيجة أعمال بعض ولاَة بني أمية الظالمة وتجاوزاتهم تجاه البربر، وذلك بالتعدِّي عليهم في الصدقات والقسَم، ووصل احتقار الولاَة وعمّالهم لدرجة أن قام عمر بن عبيد الله المرادي عامل عبيد الله بن الحبحاب على طنجة بتخْميسهم واعتبارهم فيْئا للمسلمين، فقامت بذلك ثورات الصفرية التي ثار معها كل البربر نكَاية في الأمويين، فمن جهة خدمت تلك الظروف المذهب الإباضي ومهّدت له الطريق للانتشار في المنطقة بحيث اعتنقت عديد القبائل البربرية المذهب الإباضي كرد فعل إيديولوجي ضد الممارسات السياسية والإجتماعية والاقتصادية الظالمة الممارَسة من قبل ولاَة بني أمية، ومن جهة أخرى استغل الإباضية غلوَّ الصفرية وشذوذ أفكارهم وبعْدها عن تعاليم الدين، ليُفتح بذلك لهم الباب للانتشار والوجود في بلاد المغرب.

ويدعم الأستاذ الباحث علاوة عمارة فكرة ربط انتشار فكر الخوارج عموما والإباضية خصوصا بممارسات ممثِّلي الخلافة الأموية بالقيروان، والتي وصفها بالممارسة الحديدية ضد الرعية، من قبيل الضرائب، وتهميش العنصر البربري وإبعاده عن المشاركة في تسيير شؤون بلده، ويؤكّد من ناحية أخرى أن تعوّد المجتمعات الريفية البربرية على العيش بحرية كان أيضا من أهم أسباب الإقبال الواسع للبربر على اعتناق مذاهب المعارضة الخارجية، إذ تحولت المجموعتان السياسيتان الصفرية والإباضية إلى تحالفات شعبية قبلية، واستطاعتا أن تكسبا تأييدا شعبيًّا واسعا، زاد من اتساعه مبادئ العدل والمساواة الاجتماعية والشورى التي كانت شعارا لحركتهما.

يذهب المؤرخ محمود اسماعيل ع الرازق إلى أن تاريخ دعوة الخوارج ببلاد المغرب لم يتضح بسبب تضارب الروايات واختلاطها لكنه أشار إلى أن الظهور الحقيقي لمذهب الخوارج في المغرب يعود إلى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني. ويبدوا أن هناك فرقتين من الخوارج فقط كان لهما وجود في بلاد المغرب هما الاباضية والصفرية.

عموما امتعض البربر من سياسة الأمويين والتفوا حول الخوارج رغبة في التخلص من ذلك الظلم والجور وعلى ذلك اشتعلت ثورة الخوارج الصفرية وسموا ميسرة المطغري أمير المؤمنين، ثم التحموا مع جيش الخلافة في معارك عظيمة عبأ فيها هشام ثلاثين ألفا لمقاتلة الخوارج ، وحينما التقوا انهزمت جيوش الخلافة شر هزيمة واستتب الأمر للخوارج وبسطوا نفوذهم بقوة وبأس جعل الخليفة ييأس من استعادة أفريقية بعد هزيمة جيشه الذي أرسله بقيادة كلثوم بن عياض أمام قائد الخوارج خالد بن حميد الزناتي الذي حقق للخوارج استقلال المغرب حتى صار المغرب فيما بعد ملجأ كل ناقم على الخلافة الأموية ثم صارت الأمور بعد ذلك في صراع الخوارج والخلافة يتبادل الطرفان فيه النصر والهزيمة حتى انتهت الدولة الأموية وأعقبتها الدولة العباسية، فبدأت في مقاومة الخوارج بالمغرب، ليلجأ

الإباضية حينها إلى سياسة أخرى غير الثورة لتحقيق هدفهم في تأسيس دولة تضم شتاتهم.

**ثانيا: انتشار الإباضية في بلاد المغرب من الدعوة إلى الدولة**

بدأ عهد الإباضية في المنطقة عهد إمام الإباضية الثالث -بعد جابر وابن إباض- وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، والذي لقيت أفكاره قبولا لدى شريحة كبيرة من المسلمين، وقد نجح أبو عبيدة في تكوين دعاة أسهموا في الخروج بأفكار المذهب من البصرة إلى مختلف بقاع العالم الإسلامي خاصة في المناطق النائية منه والبعيدة عن مراكز الخلافة، فكانت بلاد المغرب ضمن إستراتيجية أبي عبيدة، حيث رأى فيها البيئة الملائمة لنشر أفكار المذهب ومبادئه، فقصدها تلاميذ أبي عبيدة مع مطلع القرن الثاني للهجرة، محاولين بها تحقيق ما عجزوا عنه في بلاد المشرق.

إن المصادر الإباضية تتداول فكرة وجود بعض أتباع المذهب الإباضي في بلاد المغرب قبل ظهور حركة الدعاة زمن أبي عبيدة، حيث نوَّهت برحلة ابن مغطير أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني كأوَّل مغربي ينتقل إلى مركز الدعوة بالبصرة، لكن أنّى لابن مغطير أن يعرف ذلك المركز لولا وصول أخبار الدعوة الإباضية إليه، خاصة وأنَّ رحلته سبقت وصول سلمة بن سعيد إلى القيروان

وقد ذكر الشماخي في سيره أن أخبار الإباضية انتقلت إلى المغرب عن طريق دعاة مصر، وذكر منهم ابن اليسع المصري وعدّه من مشايخ المغرب، إضافة إلى أبي إسحاق إبراهيم المصري وعيسى بن علقمة المصري وغيرهم. ورغم إجماع مؤرخي الإباضية على وجود مجموعات إباضية ببلاد المغرب قبل ظهور سلمة، إلا أنهم يجمعون أيضا على كون سلمة أوّل داع للمذهب في المنطقة، حيث جهر بالدعوة الإباضية بين قبائل البربر القاطنة بجبل نفوسة في منطقة طرابلس خاصة منها قبيلة هوارة التي تسكن المنطقة.

لكن الأكيد أن أهل المغرب لم يعرفوا مبادئ وتعاليم المذهب الإباضي إلا بظهور حملة العلم الذين أخذوا عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وكان أوّلهم ابن مغطير النفوسي الجناوني، والذي ارتحل إلى البصرة وأخذ عن أبي عبيدة، ثم قدم بعده الخمسة المشهورون بـ"حملة العلم المغاربة" وهم: عبد الرحمان بن رستم وأبو درار إسماعيل بن درار الغدامسي، إضافة إلى عاصم السدراتي، وأبو داود القبلي النفزاوي، وانضم إليهم في البصرة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني الأصل. وكان إرسال هذه البعثة قد وقع حوالي سنة 135ه/753م بعد فشل دولة الحارث وعبد الجبار في طرابس التي عادت لحكم الأمويين، وقد نهل الخمسة العلم من معدنه مدة خمس سنوات، وتكلّلت جهودهم بعد عودتهم إلى المغرب بإقامة إمامة ظهور في تاهرت- أي دولة-.

وقد ذكر الأستاذ المبروك المنصوري أن الباحث فارنر شفارتز قد قسَّم عملية انتشار الإباضية في بلاد المغرب إلى خمس مراحل جعل المرحلة التمهيدية لتسرّب

المذهب بين سنتي (95هـ-99هـ/714م-718م)، ومصطلح التسرُّب دليل على أن عملية نشر الأفكار كانت محاطة بسرية تامة حتى لا تصل أخبار تحركاتهم لولاَة بني أمية أو ولاَة بني العباس فيفسدون أمرهم ويقفون في وجه دعوتهم.

أما المرحلة الثانية فكانت بين (102هـ-105هـ/720م-723م) وهي فترة نشاط عمر بن يمكتن وابن مغطير النفوسي، والمرحلة الثالثة بين عامي (105هـ-118هـ/ 723م-736م) وهي فترة نشاط سلمة بن سعد وظهور دوره في نشر الفكر الإباضي، وانتقائه للرجال الذين سيحملون معه همَّ الدعوة، والرابعة بين عامي(121ه-136هـ/793م-808م) وهي مرحلة تنظيم رحلة حملة العلم الخمسة إلى البصرة.

أما المرحلة الأخيرة فكانت بين(137ه-144هـ/754م-761م)، وجاءت تتويجا للجهود التي بُذِلت في المراحل السابقة، خاصة مرحلة البعثة؛ حيث وصلت في هذه المرحلة أهداف الحركة إلى مبتغاها الأخير؛ وهو إعلان إمامة الظهور وتولية أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري إماما لإباضية المغرب والذي شملت دولته قسما من طرابلس وإفريقية ومغرب زناتة.

استطاع أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري -وهو أيضا أحد حملة العلم الخمسة- إقامة إمارة إباضية بعد تولية إجماعية له سنة 140هـ/757م كإمام ظهور، ، ويبيّن الشماخي ذلك في قوله:" فلما بايعوا أبا الخطاب على الإقامة بحق الله، والعمل بما في كتابه والإقتداء بسنة نبيه واتباع الأئمة المهتدين قبله، قَبِل ذلك، لكن هذه الإمارة لم تدم طويلا حتى أسقطها ولاة افريقية من العباسيين وبعثوا لهم القائد الفذ محمد بن الأشعث الذي انتصر عليهم انتصار حاسما في معركة تاورغا سنة 144هـ فلم تدم إمارته سوى أربع سنوات لتتوالى بعدها ملاحقة الإباضيين والقضاء عليهم وعلى فكرهم.

وعلى إثر تلك الهزائم المتكررة للإباضية على يد قوات العباسيين منذ سقوط دولة أبي الخطاب فرَّ الكثير منهم إلى تاهرت، والتفَّ جميع من في تاهرت القديمة من الإباضية حول شخص عبد الرحمان بن رستم، وتمت مبايعته إماما لكل الإباضية؛ لكونه توفرت فيه صفات وشروط الإمام: الإسلام، والمذهب، والعلم، والعدالة، والبلوغ، وسلامة الحواس، والذكورة، والغرابة؛ إذ لا قبيلة ولا عشيرة تحميه، وبعد المبايعة أشاروا عليه ببناء مدينة تكون حصنا لهم، ووقع الاختيار بعد المشورة على أن تُبنى بجوار تاهرت القديمة، وسمُّوها تاهرت الحديثة، وهي على خمسة أميال غرب تاهرت القديمة، فكانت حينها تاهرت عاصمة لأول دولة وطنية إسلامية أُسّست في تلك الديار، واستطاعت بسط نفوذها وسلطانها على معظم ربوع المغرب الأوسط ما عدا ناحية الزاب التي كانت تتبع الأغالبة، وناحية تلمسان التي سيطر عليها الأدارسة. وقد وقع الإختيار على مدينة تاهرت نظرا لما يتوفر فيها من مواصفات تؤهلها لئن تكون عاصمةً للدولة الناشئة

وقد تفنَّن الإباضية في بناء مدينة تاهرت حتى أضْحت المدينة الجديدة عروس تلك الأقطار، وفخر تلك الديار، حتى وصفها المؤرخون بعراق المغرب وقاعدة

المغرب الأوسط، خاصة وأنها أصبحت عاصمة الدولة الرستمية بعد أن تمَّت مبايعة عبد الرحمان بن رستم بالإمامة، وذلك حينما استأنس الإباضية من أنفسهم قوَّة ووجدوا أن دوافع إعلان إمامة الظهور من العدد والعدّة والمكان الحصين قد توفّرت.

وتعد تاهرت من المدن الإسلامية الحديثة النشأة، فبلاد المغرب لم تشهد تأسيسا مكثفا للمدن منذ عصر الفتح، بحيث شهدت فقط بعد القيروان بناء مدينة سجلماسة، وربما كانت حياة الفوضى واللاإستقرار التي شهدتها بلاد المغرب نتيجة الحروب والثورات المتكررة حائلا دون التوجّه للبناء والعمران. وقد بلغت تاهرت يومئذ شأوا عظيما من التمدن والحضارة والعمران، وأصبحت قبْلة لكلِّ المسلمين فضلا عن الإباضيين الذي كانت ملاذا لهم من الأعداء،

كان لأئمة الدولة دور كبير في تطوير المدينة وتنميتها، فقد اهتمّوا أيَّما اهتمام بالفكر والثقافة؛ كيف لا ؟ وقد كان منهم العلماء والفقهاء والأدباء، فبنُوا المساجد وحوَّلوها إلى منارات للعلم، وأنشأوا المؤسسات التعليمية؛ من كتاتيب ومكتبات جلبوا لها الكتب النفيسة من المشرق، وأسَّسوا مكتبة عظيمة لا تضاهيها غير مكتبة بغداد، واهتمّوا بمجال الوراقة والنسخ؛ الذي زاد من وفْرة الكتب وسهولة تداولها بين العلماء والفقهاء ، كما طوَّروا مجالات الدولة الأخرى كالزراعة وتربية الماشية والتجارة والصناعة والحرف وغيرها .

ويشير الباحث والمؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله -رحمه الله- إلى أنَّ تاهرت قد فتحت المجال أمام الأفكار فانفتحت، وحرّرت العقول فانطلقت، وأتاحت للألسنة والأقلام مجال النطق والتحبير فنطقت ودبّجت، فوصلَنا منها أدبٌ وعلمٌ وفنٌّ وفلسفةٌ وفقه .

ونشير إلى أنه كان لتاهرت تأثير فكري وعقدي على التجمعات الإباضية الصحراوية أو ما يعرف بالواحات والتي كانت منتشرة في المنطقة الواقعة بين طرابلس وتاهرت، كجبل نفوسة وغدامس وفزان وجنوب تونس وفي شطِّ الجريد وفي جربة وفي وارجلان وفي أريغ وأسوف. كما أحْدثت تاهرت حركيَّة علمية لا نظير لها في تاريخ المغرب، حيث أصبحت المساجد والمدراس مكانا للمناظرة والمحاورة في شتَّى القضايا الفكرية والمذهبية والفلسفية، كلُّ ذلك في ظلِّ جوٍّ تسوده الحرية التي كفلتها الدولة الرستمية للجميع، فأضحت تاهرت مدرسة لشحذ روح الجدل وحب المناقشة والتدقيقات، فأيْنع بذلك الفكر وتطوَّرت نظريَّاته، واستمر حكم الرستميين في تاهرت يتوارثه أبناء عبد الرحمان ، فقد حكم منهم عبد الوهاب ثم أفلح ثم أبي بكر ثم أبي اليقظان ثم يعقوب ثم أبي حاتم يوسف وآخرهم يقظان انهارت إمامة تاهرت والدولة الرستمية في عهده سنة 296هـ على يد العبيديين؛ لينتقل بعدها مركز النشاطات الإباضية الفكرية منها إلى وارجلان.

إن سقوط دولة الرستميين الإباضية لا يعني اندثار المذهب الاباضي فقد بقي المذهب في قلوب أتباعه وحافظ الإباضيون على وجودهم ببلاد المغرب وإلى يوم الناس هذا لا تزال هناك تجمعات لهم بوادي مزاب بالجزائر وجربة بتونس وجبل

نفوسة بليبيا والذي أسهم في بقاء مذهبهم ابتعادهم عن مناطق الصراع وانحسارهم نحو المناطق الجنوبية واعتمادهم مبدأ العزلة، كما أن تأسيسهم لنظام العزابة سنة 409ه على يد أبي عبد الله الفرسطائي بوادي ريغ ساهم في لم شمل إباضية المغرب وحفظ مذهبهم.